

العادات و التقاليد الشعبية

ظاهرة التوزيع و أبعادها

الاجتماعية و الثقافية والاقتصادية

أ.د/ سعيدي محمد - جمعة تلمسان

تعتبر العادات والتقاليد الشعبية الطابع المميز للشعوب عن بعضها البعض من حيث الطرح الاختلافي كما نعتبر أيضا من المعالم الأساسية في تحديد هوية الشعوب من حيث الطرح الهوياتي والثقافي والاجتماعي.

تحمل العادات والتقاليد الشعبية بين طياتها عددا من القيم المرتبطة ارتباطا عضويا بهوية انتماء الشعوب وهوية نمطها المعاش، كما تشكل هذه العادات والتقاليد المادية والمعنوية والسلوكية تراثا حيا وادقا وواقعا عن النظم الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعقائدية والفنية للشعوب. إن دراسة العادات والتقاليد الشعبية محطة أساسية لاقتحام عمق المجتمعات وفهم تاريخها الثقافي والاجتماعي.

فهي تساعد على فهم عميق للواقع الشعبي ولطموحاته. كما قد تشكل هذه العادات والتقاليد مادة خصبة من أجل تأسيس مشروع ثقافي واجتماعي واقتصادي وسياسي يتماشى ونفسية الشعب وكذا هويته ونمط تفكيره ورؤيته للحياة وللأشياء.

إن الشعب الجزائري، كغيره من الشعوب، يمارس عاداته وتقاليد بصورة عادية وطبيعية. فهي جزء لا يتجزأ من شخصيته وهويته وثقافته وحضارته. فلقد ظل يمارس عاداته وتقاليد دون هوادة ولا انقطاع ينظمها وينظم أطرها الثقافية والاجتماعية والعقائدية، فيحتفل بأعياده، يمارس طقوسه وفق رؤية ومنطق خاصين به وبشخصيته.

إن الحديث عن كل العادات والتقاليد الجزائرية دفعة واحدة يتعدى طاقتنا وقد تنوعت وتعدد أجناسها وأغراضها ولا تساع فضاء ممارستها من حيث التصريح والرمز والتكاد.

سوف نقتصر على شكل واحد من عادات وتقاليد الشعب الجزائري والذي لاتزال ممارسته حية ومستمرة في مناسبات مختلفة وفي فضاءات اجتماعية وثقافية واقتصادية مختلفة أيضا. نقتصر على دراسة ظاهرة التوزيع والتي نقتحم فضاءاتها المختلفة عبر عدد من الأسئلة أهمها:

ما مفهوم التوزيع ؟

ماهي طبيعتها المادية والمعنوية ؟

ماهي أبعادها النفسية والاجتماعية والاقتصادية ؟

ماهي أصولها العقائدية ؟

**تعريف التوزيع:**

منذ البداية لابد من الإشارة أن مقاربتنا لظاهرة التوزيع أردناها وظيفية بنيوية ممزوجة بمقاربة اتنوغرافية والتي أردناها مقدمة افتتاحية وتمهيدية لتحديد الموضوع وأطره الثقافية والاجتماعية والبشرية.

إن التوزيع مصطلح شعبي يعني التعاون والمساعدة. وقد يبدو أن المصطلح من حيث الأصل اللغوي قريب من لفظة "أزى" و "تأزى" القوم أي تدانوا، تساعدوا وتآزرُوا، فالفعل الشعبي - العامي - "تَوَزَّ"، يقترب بل يتزادف دلاليا ورمزيا مما يشيعه الفعلان الفصيحيان: "أزى وأزر" - فالأفعال الثلاثة: تَوَزَّ - أزى - أزر، تعني المؤازرة، وتقوية الصف والتعاون والمساعدة والتآخي.

فالتوزيع مصطلح شعبي يترجم معاني التعاون والمساعدة لغة واصطلاحا، ومنه اشتقت العبارة الشعبية "الجماعة توزت لفلان" أي أن عددا من الأفراد ينتمون إلى كتلة بشرية واثنية وثقافية واجتماعية وجغرافية واحدة (العائلة-القبيلة-القرية...) يسرعون لمساعدة من هو في حاجة ماسة إلى مساعدة من أجل تحقيق رغبة معايشة خاصة وشخصية قد عجز عن تحقيقها منفردا ولوحده.

**الطبيعة المادية والمعنوية للتوزيع:**

إن ظاهرة التوزيع ممارسة ثقافية واجتماعية واقتصادية تمتاز بحضور قوي خاصة في المجتمع الريفي التقليدي، في حين تكاد تنعدم في المدينة وذلك راجع إلى طبيعة النظم الثقافية والاجتماعية والاقتصادية وكذا العلاقات الإنسانية والأخلاقية لكل فضاء:



تشكل العناصر المشكلة للفضاء الريفي كالعقابة- والسكن الجماعي- والنشاط الفلاحي- والسلطة العرفية- والعلاقات الاجتماعية- التربة الخصبة لظهور ولممارسة التوزيع لأن الأفراد ملتحمون ببعضهم البعض ويحسون بالآلام وآمال بعضهم البعض. لقد ظهرت التوزيع أول ما ظهرت وشاعت في الميدان الفلاحي الزراعي وقد خضع نظامها لمنطق فلاحى خاص...

إن الإنتاج الزراعي حين يأتي ويحين قطافه لا بد وان يسرع الفلاح حتى لا يضيع منه ذلك وذهب سدا غير أن هذا الفلاح صاحب الإنتاج فهو محدود القوة والإمكانات الأمر الذي يستدعي السرعة والقوة اللازمين وقد لا يجدهما -هذا الفلاح- إلا استجاب له المقربون له من أقارب وأصدقاء وجيران فلاحين وأمثاله.

إن التكفل السريع بالإنتاج يحتاج إلى معاونة ومساعدة جماعية أو بلغة أخرى يستدعي التوزيع. إن استجابة الجماعة لنداء التوزيع تحمل عدة قيم ومعاني مادية ومعنوية، فماديتها تتمثل في عدم ضياع المحصول الزراعي واستفادة هذا الفلاح " المتوز له " استفادة مادية، أما معنوياتها، فتتمثل في عدم إحساس هذا الفلاح بالمعاناة الشخصية والعزلة وبالتالي فإن الأفراد " المتوزون " يعملون جاهدين من أجل تخفيف من أعباء ومتاعب من بعض الأعمال الشاقة التي لا يقدر القيام بها هذا الفلاح بمفرده.

إن الوضعيات والحالات النفسية والاجتماعية والاقتصادية للفلاحين متشابهة وذلك نظرا لانتمائهم إلى نفس الفضاء ماديا ومعنويا، فكل فلاح يحس بمعاناة زميله وهو مقدم على بعض الأعمال الشاقة والمتعبة كالحرث والحصاد وجني الثمر وغيرها من الأنشطة الفلاحية التي تتطلب يد عاملة كثيرة وقوية عددا وعدة.

يعرض هذا الإحساس المشترك بين الفلاحين ثقافة التوزيع مبدأ وممارسة وحقا وواجبا، كإجراء عملي يفيد به الفلاح غيره من الفلاحين ويستفيد هو الآخر منه من الفلاحين الآخرين. وذلك عملا بمبدأ المثل الشعبي القائل: " اليوم عليّ وغدا عليك "

### الأبعاد النفسية والاجتماعية والاقتصادية للتوزيع:

لم تقتصر التوزيع على فلاح دون الآخر، فكل فرد ينتمي إلى الجماعة وكان في حاجة إلى المساعدة أو أن عمله أو مشروعه يقتضي التعاون. فيسرع أفراد جماعته إلى مساعدته بكل جدية وإخلاص ودون تهاون أو تردد.

فالتوزيع ممارسة جماعية اجتماعية، يستجيب لها كل الأفراد المنتمين إلى نفس الجماعة. فهي مبادلة تعاونية بين هؤلاء الأفراد كما أنها غير خاضعة للشروط أو عقود مادية، قد يساعد فلاح فلاحا آخر بكل ما يملك من قوة مادية و معنوية، وغدا يأتي دور الفلاح المساعد ( بكسر العين ) أي يكون في حاجة ماسة هو الآخر، إلى مساعدة غير أن الفلاح الذي قدم له المساعدة ذات يوم جاءت مساعدته نافعة أي ليست في مستوى أو في حجم تلك المساعدة التي استفاد بها من عند زميله. فهي ضعيفة في شكلها وفي مضمونها كأن لم يخضر معه وسائل الإنتاج أو جاء متأخرا وغير هذا من المنوعات التي عرقلت الاستجابة للمساعدة... فمهما تكون طبيعة المساعدة التي قد يؤديها. فلا لوم عليه سواء من قبل زميله الذي قد ساعده ذات مرة أو حتى من قبل الجماعة السنتطة المعنوية والمنظمة للتوزيع.

نحاول تشكيل هذا الموقف في الشكل البياني التالي:

فلاح "أ" → فلاح "ب"



الحلقة الأولى

في حاجة إلى مساعدة حرث الأرض يستجيب لمساعدة زميله يحضر  
ومعه محراثه وحيواناته التي  
تجر المحراث.

الفلاح "ب" → الفلاح "أ"



الحلقة الثانية

في حاجة إلى مساعدة حرث الأرض يستجيب لمساعدة زميله لكن لم  
يحضر معه أدوات العمل: لأنه لا  
يمتلكها أو معطلة.

ففي مثل هذه الوضعية وهذه الحالة، فإن الفلاح "ب" لا يلوم ولا يعاتب زميله على  
عدم إحضار أدواته كما فعل هو معه يوم ساعده في حرث أرضه.  
كما قد يطلب فلاح المساعدة، ويستجيب له كل أفراد الجماعة بكل طاقتهم المادية والمعنوية  
ويقومون له بتوزيع كبيرة ولكن قد يحدث أن يوم يطلب منه المساعدة والمشاركة في توزيع لأحد  
الزملاء فقد لا يلي الدعوة والطلب والأمر لسبب من الأسباب كالمرض أو الغياب لأمر شخصي  
أو عائلي... فلا لوم عليه سواء من لدن زميله الذي ساعده ذات مرة أو من الجماعة التي ينتمي  
إليها، لأن المبدأ الأساسي في فعل التوزيع هو أصل مبدأ روعي ومعنوي غير قائم على الحسابات  
المادية أو حتى على المحسوبية غير الأخلاقية الضيقة. فالحسابات والمقايضات غير مقبولة ولا وجود  
لها ضمن القضاء الاجتماعي والثقافي والاقتصادي التقليدي العربي القرابي المتماثل.

إن التوزيع ممارسة معنوية قبل أن تكون مادية، يلتزم بها الفرد أمام الجماعة التي ينتمي إليها، فأساسها الإيمان بمبدأ التعاون وتبادل المساعدة في حدود الإمكان وتخفيف الأفراد عن بعضهم البعض من عبء وأهوال ومتاعب الحياة المهنية الشاقة.

فالتوزيع ممارسة اجتماعية جماعية، تزيد الأفراد حبا وتماسكا وتقربا إلى بعضهم البعض وإحسانا بآمال وألام بعضهم البعض. فهي ممارسة أيضا اقتصادية تحمل بين طياتها قيما مالية يفيد الأفراد بعضهم بعضا بها، فهي رأس مال معنوي ومادي في نفس الوقت يساهم في استثماره كل أعضاء الجماعة. إن الفلاح الذي يباشر عمله الحرث يستجيب له أبناء جماعته بمحارتهم وحيواناتهم، وبالتالي يوظفون وسائلهم الإنتاجية خدمة لصدقهم، يساعدونه بأيديهم وبما يملكون من أدوات العمل الصالحة والمطلوبة في هذا النمط من التوزيع يقوم على حضور الشخصي مصحوبا بأدوات العمل سنة وتقليدا في مثل هذه المناسبة... فالتوزيع تكون باليد العاملة وبما يملك هذا العامل من وسائل الإنتاج الشخصية والتي يضعها في خدمة صديقه يستفيد منها.

فبلغه أهل الاقتصاد تترجم فعل التوزيع بأنها تسخير جماعة من العمال طاقتهم اليدوية والفكرية ووسائل إنتاجهم المادية لمساعدة زميل لهم في حاجة ماسة إلى ذلك، ويتعاقد على هذا التقليد الجماعي الاجتماعي كل أعضاء الجماعة يفيدون ويستفيدون، يحضرون ويحضرهم "يتوزون ويتوز لهم".

## الأصول الدينية والثقافية للتوزيع

التوزيع ظاهرة ثقافية واجتماعية قديمة، مارسها الجزائريون واستفادوا منها سواء من حيث توطيد العلاقات الاجتماعية فيما بينهم أو من حيث المردودية الاقتصادية التي تعود عليهم بالربح والفائدة. مارس الجزائريون التوزيع سواء ذات المنفعة الشخصية أي الجماعة تساعد واحد من أعضائها في نشاط من الأنشطة الحياتية الشخصية والخاصة، أو ذات المنفعة العامة، أي تتعاون الجماعة فيما بينها من أجل عمل جماعي وهدف أو مصلحة جماعية ويعود بالفائدة على الجماعة، كشف الطرق، تنظيف المقابر، بناء الجسور، بناء المسا، فتح قنوات الري الخ...

لقد استمدت المنظومة الفكرية الريفية التقليدية الجزائرية ممارسة التوزيع من العقيدة الدينية الإسلامية ومن التراث الفكري الشعبي وخاصة من الحكم والأمثال الشعبية التي تحمل مكانة بارزة في الممارسات الكلامية الشعبية الجزائرية.

لقد مارس الجزائريون الريفيون وخاصة الفلاحين منهم التوزيع تحت وقع وإيقاع قول الله تعالى: "وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تتعاونوا على الإثم والعدوان"<sup>2</sup> وقوله سبحانه و تعالى " ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون"<sup>3</sup>

وفي نفس العدد، نذكر بعض أحاديث الرسول (ص) الذي كان دوما وأبدا يحث المسلمين على التعاون ومساعدة بعضهم البعض، ومؤازرة القوي منهم للضعيف.

"الله في عون العبد مادام العبد في عون أخيه"

"من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة"

"مثل المؤمنين في توادهم و تراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى".

"خير الناس أنفعهم للناس"

"المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا"

وقد تطلع الفكر الشعبي بهذه الآيات والأحاديث النبوية في مادة التعاون والمساعدة والتآزر ليرجمها ضمن عدد من المقولات الشعبية من الحكم وأمثال الأحداث دلالتها حول الدعوة للتعاون والمساعدة الجماعية :

"أني لشركة بركة"

"يبدأ الله مع الجماعة"

واحد ما يعني الجماعة، الجماعة تعني الواحد"

"المشغولة مع نصارى والتعود حسرة"

"لنعاونك بيد، غاولة بروج"

إن الفكر التثبيدي الريفي الجزائري يحث إلى جماعة وبلى التآخي والتآزر والتعاون. وبالتالي فإن هذا الختان مرتبط أصلاً بالواقع النفسي والثقافي والاجتماعي والاقتصادي والعقائدي لنفلاخ الجزائري الذي يعيش ضمن العائلة الواحدة المتسكة. والمتروكة كثة واحدة موحدة. فكل فرد يعمل جاهداً للحفاظ على التماسك والانتهاج إلى العائلة الكبيرة - لعشيرة - التي حسيها وحتسي بها. يساعدها ويستفيد من مساعداتها له.

ونشير إلى أن ظاهرة التوزيع قد وجدت في التنظيم الاجتماعي العائلي الممتد الإحار الإنجابي بامتياز. فكل فرد يشارك في التوزيع. يعمل نجد وبإخلاص وبصدق كبير لأنه يعمل ويساعد ابن عائلته وابن دمه الذي هو أخوه من حيث الانتماء إلى العائلة الممتدة. فإن "المتوز". و المتوز له ينتميان إلى نسب واحد وعائلة كبيرة واحدة والتي هي أصلاً تتكون من عدد من الاسر التي تحمل كنية واحدة. وتعود بنسبها إلى جد واحد تستمد منه كنيته حتى يجوز أن يقال أن القرية هي "عائلة العائلات متوحدة بأصولها وكثافة التزاوج في ما بينها. ويكون من هو خارج القرية غريباً... إن العصبية العائلية الممتدة تنشأ عن ضرورات التعاون. وعن كون العائلة وحدة اقتصادية اجتماعية. أي أن وحدة الإنتاج - في سبيل تأمين المعيشة والمكانة المطلوبة في المجتمع ليرعى. يدان تنصل نرية الدم تضاماً وتباً بأهمية العمل المشترك في ظروف قاهرة واضطرارية.

هذا ليس من تشيعه شمسار التثبيدي والاجتماعي والثقافي والنفسي والعقائدي والاقتصادي والجغرافي لظاهرة التوزيع أنها وجدت في نظام القرية وما أفرزته من عصبية. أرضاً

حسبية. ومن ثمة، فإن المجتمعات التي تخضع لعلاقات أفرادها أكثر إلى القرابة الدموية، تعرف فيها ظاهرة التوزيع نشاطا كبيرا، حيث أنه إضافة إلى إحساس هذه الجماعات بضرورة التكاتف والتآزر لمواجهة أهوال الحيات في الريف بكل قسوتها وإتساعها وندرة مواردها، ونشدان الماء والمراعي. وحماية الذات من الأخطار القادمة، وتأمين المعيشة، إن كل هذه الأوضاع والضرورات الحياتية اقتضت قيام عصبية قبلية تقوم في أساسها على علاقات القرابة الدموية ونشوء وحدات قتالية شديدة البأس والفروسية والشجاعة في الدفاع عنها وتأمين معيشتها<sup>4</sup>.

وفي اعتقادنا، فإن العصبية سواء كانت بائنة وظاهرة وإرادية في خطابات وسلوكات الأفراد المنتمين إلى نفس الجماعة أو كانت غير ظاهرة ولا إرادية، فإنها تشكل مصدرا من المصادر المعنوية والسلوكية الأساسية في تفعيل التوزيع. فبين العصبية والتوزيع علاقة عضوية متينة حيث تغذيان بعضهما البعض وتؤديان إلى بعضهما البعض، فلا توجد توزيع قوية وفعالة بدون عصبية تدعو إليها وتحميها، كما لا توجد عصبية متينة بدون توزيع تغذيها وتزيد في روحها ومادتها.

وانطلاقا مما سبق، " فإن قيم العصبية القبيلية هي قيم التضامن والتماسك الداخلي تجاه تحديات - القرية - ومخاطرها ومهمات تأمين المعيشة في بيئة قاسية، قاحلة، تشمل قيم العصبية الافتخار بالنسب، ونصرة القريب، والمساواة بين أفراد القبيلة، واحترام أو طاعة الأهل الكبار في العمر. والثأر، والحشمة والشرف"<sup>5</sup>.

لقد كان لمبدأ التوزيع أثر كبير في توجيه بعض من التخطيطات والممارسات الثقافية والاجتماعية والاقتصادية في الإطار الجغرافي الحضري أي في المدن، حيث تواصل تفعيله واستثمارها باسم جديد ومعاصر وهو التطوع والتضامن. لقد استغلت المؤسسات الرسمية هذه الممارسة وروحيتها وفق الثقافة الحضرية وطبقته في عدد من المشاريع ذات المنفعة العامة كتنظيف الأحياء والشوارع وتنظيف المقابر، وحملات التشجير. وغير ذلك من الأنشطة الجماعية وذات الطابع الخيري والتي تعود فائدتها على المجتمع ككل.

إن استحابة سكان المدينة بسرعة وبدون تردد وبدون أدنى قيد وشرط لمثل هذه النداءات التطوعية، يدل على أن الفرد المدني. رغم أنه يعيش في المدينة وفي ثقافة حضرية، فإنه لم ينسخ من